

" المقتضب " للمبرد (210هـ _ 285هـ)

I. التعريف بالمبرد:

1. حياته

هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام نحاة البصرة لعصره، وُلد بها سنة 210 للهجرة، وقيل: سنة 207، وأكْبَ منذ نشأته على التزود من اللغة على أعلام عصره البصريين، وشُغف بالنحو والتصريف، فلزم علي الجرمي يقرأ عليه كتاب سيبويه، حتى إذا توفي لزم أبا عثمان المازني، وتصدر حلقاته يقرأ عليه الكتاب، والطلاب يسمعون قراءته. وبلغ من إعجاب المازني بفطنته أن لقبه بالمبرد -بكسر الراء- لحسن تثبته وتأتيه في العلل، وحوّر الكوفيون اللقب إلى المبرد -بفتح الراء- عنتا له وسوء قصد. ويلمع اسمه وتطير شهرته، فيستدعيه المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان إلى "سر من رأى" سنة 246 ليفتي الفتوى الصحيحة في بعض المسائل اللغوية والنحوية، ويجزلا له في العطاء، حتى إذا توفيا سنة 247 كتب محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد يحث في إشخاصه إليه، ويقدم إلى بغداد ويلقي بها عصاه، ويجري عليه محمد بن عبد الله راتبا حتى إذا توفي تابع أخوه عبيد الله الذي خلفه على شرطة بغداد إجراء الرواتب عليه. وقد مضى يحاضر الطلاب ببغداد في النحو واللغة، وسرعان ما اصطدم بثعلب زعيم مدرسة الكوفة لعصره، وكثرت بينهما المناظرات، وكتب له فيها دائما التفوق على صاحبه؛ لقدرتة على الجدل وإصابته للحجة وحسن بيانه، مما جعل كثيرين من تلاميذ ثعلب يتحولون إلى حلقته، يتقدمهم ختنه أبو علي الدينوري. وما زال مفرع طلاب اللغة والنحو ببغداد، حتى توفي سنة 285 وقيل: سنة 285.¹

والمبرد يعد -بحق- آخر أئمة المدرسة البصرية المهمين، وقد ذكره ابن جني فقال: "يعد جيلا في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا "يريد البصريين"، وهو الذي نقلها وقرّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها". ويقول الأزهري في مقدمة معجمه "تهذيب اللغة": "كان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه".²

2. مصنفاته:

وللمبرد مصنفات كثيرة، طبع منها نسب عدنان وقحطان، وما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، وكتاب الفاضل وكتاب الكامل وهما نصوص أدبية عني بشرح ما فيها من لغة. وله وراء ذلك كتب نفيسة سقطت من يد الزمن، من أهمها: كتاب الاشتقاق وكتاب معاني القرآن وكتاب التصريف وكتاب المدخل إلى سيبويه وكتاب شرح شواهد الكتاب وكتاب معنى كتاب الأوسط للأخفش وكتاب إعراب القرآن. وكتب في شبابه كتابا سماه الرد

1 ينظر: محمد ضياء الدين، آراء سيبويه اللغوية والنحوية في كتاب المقتضب للمبرد، مجلة الآداب، العدد 110، 1436/2014، ص57.

2 شوقي ضيف، المدارس النحوية، مرجع سابق، 123.

على سيبويه أو مسائل الغلط، وفيه حاول أن يظهر مقدرته في تخطئة إمام النحاة، جامعا ملاحظات الأخفش وغيره في هذا الصدد، وكان يقول بعد أن تقدمت به السن: "إن هذا كتاب كنا عملناه في أوان الشيبية والحادثة" معتذرا بذلك عنه.¹ ويقول ابن جني: "أما ما تعقب به أبو العباس المبرد محمد بن يزيد كتاب سيبويه في المواضع التي سماها مسائل الغلط، فقلما يلزم صاحب الكتاب إلا الشيء النزر".²

3. مكانته:

المبرد من الأعلام البصريين الكبار في القرن الثالث الهـ، مؤلفاته كثيرة ومتنوعة. مع فصاحة اللسان، وبراعة البيان وضوح الشرح، والثقة في الرواية. يقول أبو الطيب اللغوي عنه: "لم يكن في وقته ولا بعده مثله".³

قال عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب، وأبو بكر بن أبي الأزهر: كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم وعزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، ومُلوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة الترجمة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق... على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه.

سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: لم ير المبرد مثل نفسه ممن كان قبله، ولا يوفي بعده مثله.

وحدثني سهل بن أبي سهل البهزي، وإبراهيم بن محمد المسمعي قالا: رأينا محمد بن يزيد، وهو حديث السن، مُتصدراً في حلقة أبي عثمان المازني يُقرأ عليه كتاب سيبويه، وأبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها.

وحدثني اليوسفي الكاتب قال: كنت يوماً عند أبي حاتم السجستاني إذ أتاه شاب من أهل نيسابور، فقال له: يا أبا حاتم، إني قدمتُ بلدكم، وهو بلد العلم والعلماء، وأنت شيخ هذه المدينة وأحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه. فقال له: الدينُ النصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرأ؛ فاقراً على هذا الغلام: محمد بن يزيد. فتعجبتُ من ذلك. فاقراً على هذا الغلام: محمد بن يزيد. فتعجبتُ من ذلك.⁴

II. التعريف بكتاب "المقتضب":

1. عنوان كتاب "المقتضب":

1 المرجع السابق، ص 124.

2 أبو الفتح عثمان بن جني، خصائص اللغة العربية، 3/ 287.

3 أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى، 2002، ص 98.

4 الزبيدي (ابن عبيد الله الأندلسي الإشبيلي)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، د.ت، ص 101.

المقتضب اسم مفعول من اقتضب، واصلها قضب. اقتضبت الحديث أي انتزعته واقتطعته. واقتضاب الكلام أي ارتجاله من غير إعداد مسبق. ومنه فالمقتضب بمعنى المرتجل.¹

هو أشهر كتاب ظهر في علمي النحو والصرف وما يتبعهما من دراسة صوتية بعد كتاب سيبويه، عاجل فيه المبرد مسائل هذين العلمين من غير أن يخلطهما ببحوث أدبية أو لغوية كما فعل في كتابيه "الفاضل والكامل"، وإنما جعله كتابا قائما برأسه فلم يشر فيه إلى غيره في المسائل النحوية أو الصرفية التي تعرض له في كتاب من كتبه التي ألفها بعده كالكامل. وكان يسميه الكتاب المقتضب.

وقد كان لسيبويه وكتابه وآرائه أثر ظاهر في جميع أبواب النحو ومسائله وبعثت الصرف التي فيه، فقد اعتمد المبرد اعتمادا كبيرا عليه، وإن خالفه في بعض المسائل والفروع والآراء، وزاد عليه تحديد بعض الأبواب ولم بعض المتشابهات تحت عنوان واحد مستقر. وقد تبين الأستاذ محمد عبد الخالق عزيمة هذا التأثر فاهتم بذكر نصوص سيبويه في كل مسألة عرض لها المبرد وإثباتها في هوامش المقتضب ليبين مدى اعتماد المبرد عليه، وليوضح الاختلاف بين آرائهما، ولا سيما ما ردّ به المبرد على سيبويه. وكان للأستاذ المحقق هدف آخر في الربط بين نصوص الكتابين بينه بقوله ثم أن كتاب سيبويه والمقتضب هما أقدم وأضخم ما وصل إلينا من كتب النحو والصرف، فالربط بينهما تسجيل لخطوات نشأة النحو وتدرجه في القرنين الثاني والثالث، وفي ذلك كشف عن منابع المقتضب ومصادر آرائه، كما يعتبر ذلك دعامة قوية في الدراسات المقارنة.

وقد بلغت شواهد المقتضب الشعرية التي أخذها من الكتاب 380 شاهدا وبلغ مجموع ما أورده المحقق من نصوص الكتاب التي تضمنها التعليق على المقتضب 1550 نصا. وقد أثبت المحقق أن معظم ما نسب إلى المبرد من آراء يرد بها على سيبويه أو يعارضه فيها مما نسبته إليه كتب التراجم والتاريخ عاري عن الصحة؛ فقد كان فقد كان متفقا مع سيبويه في معظمها، وإنما دفعهم إلى وضعها ونسبتها إليه إقدامه على نقد كتاب سيبويه في "مسائل الغلط" فقد نسبت إليه آراء قال بخلافها، وليس أدل على هذا من أن سيبويه استشهد للعطف على الموضوع بقول الشاعر:

معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالرجال ولا الحديد

في أربعة مواضع من كتابه. وجاوزها كلها المبرد في نقضه للكتاب. ثم استشهد بهذا البيت للعطف على الموضوع في ثلاثة مواطن من المقتضب. وبعد هذا كله: يقال إن المبرد رد على سيبويه روايته لهذا البيت.¹ هذه الشهادة من المحقق الأستاذ عبد الخالق عزيمة ترد من حدة ما قيل في حمل المبرد على سيبويه.

1 ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ، 1/678.

2. منهجه:

أ- ترتيب الأبواب النحوية والصرفية:

في ما يتعلق بترتيب الأبواب النحوية والصرفية نجد أبا العباس قد احتطّ لنفسه منهجا تفرد به عن سابقيه، وخصوصا عند المتأخرين. ويبدو أن هذا النهج الذي انتهجه لم يعتمد أساسا معينا كتقديم المرفوعات ثم المنصوبات ثم المجرورات مثلا، كما أنه لم يلتزم أساسا معينا للفصل بين هذه الأبواب النحوية والصرفية، ويمكن القول إجمالا إنه اعتمد على توارد الخواطر، ومن ثم كان يتناول المسألة الواحدة في أكثر من موضع، ومن ذلك على سبيل المثال أنه ذكر في صدر كتابه "أمر الأسماء والأفعال"، بأن يجبر عن علة ما يتكون منه كل منها في ما بعد، وقد وفي بذلك الوعد، ولكن بعد ما يقارب مائة صفحة.

ب- المسائل النحوية وشرحها:

وفي ما يتعلق بعنوانة المسائل النحوية وشرحها فإنه يمكن تلخيص ملامح هذا المنهج في النقاط التالية:

✓ وضوح العبارة وإيجازها في الأغلب الأعم من المواضيع "فهذه الحركات تسمى بهذه الأسماء اذا كان الشيء معربا، فان كان مبنيا لا يزول من حركة إلى أخرى نحو "حيث وقبل وبعد"، قيل له مضموم، ولم يقل مرفوع، لأنه لا يزول من الضم.

✓ الأخذ بمبدأ التعليل للحكم النحوي أو الصرفي، وهذا النوع من ذكر العلة يشكل نوعا من تفسير العلماء العرب لما سمعوه من العرب أو قاسوه على المسموع منهم. والتعليل المباشر الذي استخدمه المتقدمون من النحاة لا يناقض ما ذهبت إليه الدراسات اللغوية الحديثة.

✓ اهتم المبرد اهتماما كبيرا بالتمارين النحوية، مما أدى به إلى اختراع أمثلة افتراضية لم يستعملها العرب. ويشير هذا الاهتمام إلى أن المبرد لم يكن عالما بالنحو فقط وإنما إلى كونه معلما له أيضا. ومن أمثله ذلك قوله: "ونقول في مسائل طوال يمتحن بها المتعلمون: المكرومة المعطية دراهما القائمة في داره أخوك صوتا أكرم الأكل طعامه غلامه عبد الله أخوك". وهذه الجملة الافتراضية الطويلة التي أخذ المبرد في تحليلها نحويا تتجافى مع أصول النظم العربي الفصيح. وهي وان استقامت نحويا ألا انها ، دلاليا.

✓ الاعتماد على الشواهد في تقرير الأحكام النحوية والصرفية، وقد تنوعت هذه الشواهد فشملت القرآن الكريم والشعر وأقوال العرب، وكان من النادر جدا أن يستشهد بالحديث الشريف، ومن

¹ خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل - إربد الأردن، الطبعة الثالثة، 2001م، ص 96، 97.